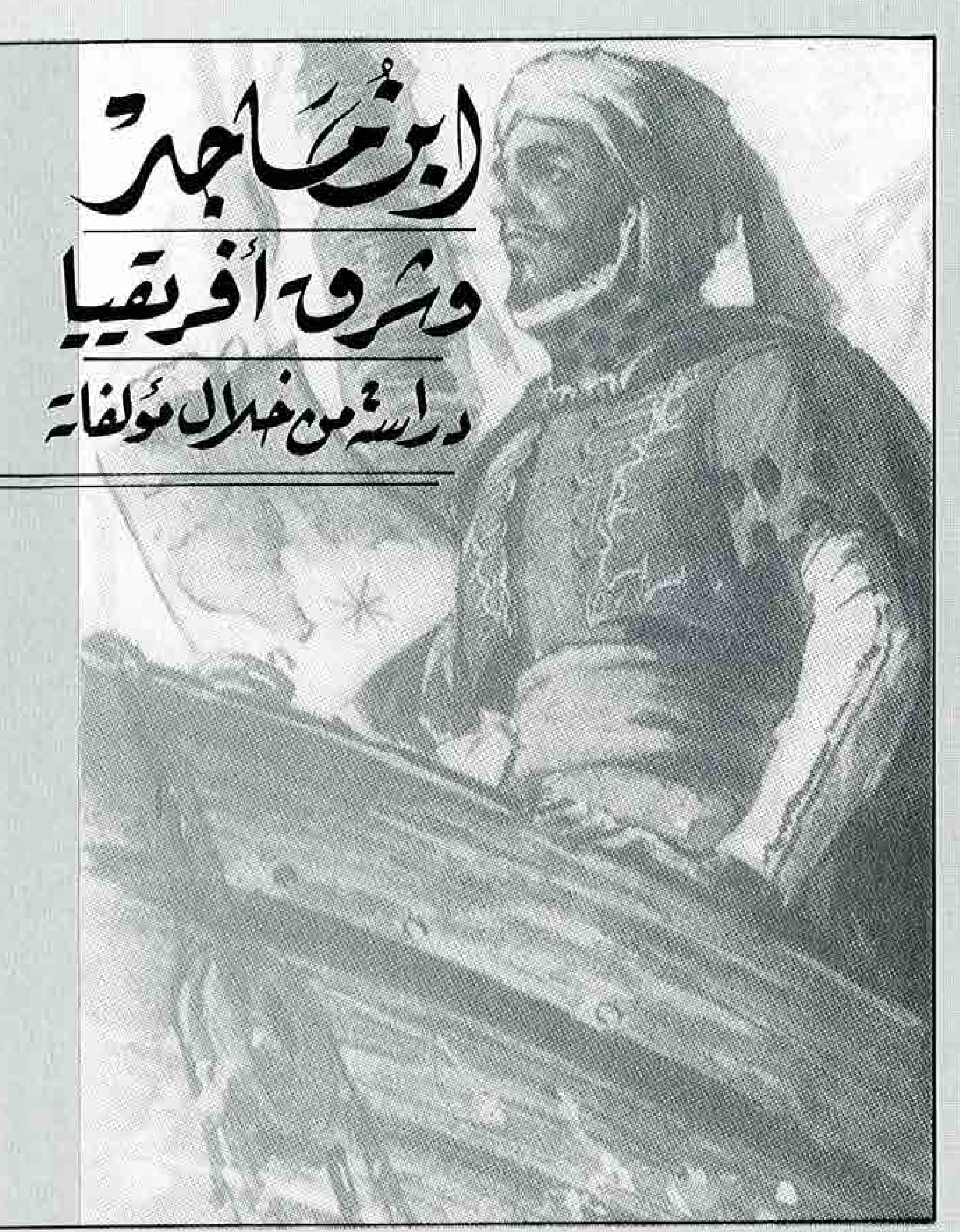


# ابن ماجد

## وشرق أفريقيا

### دراسة من خلال مؤلفاته

# علاقات عُمان بشرق أفريقيا حتى القرن ١٠هـ/١٦م

الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي

لا أريد بهذه المقدمة ان أؤرخ للعلاقات العمانية الافريقية ، وانما الهدف هو تقديم موجز عن علاقات عمان بشرق افريقيا من حيث دوافعها واسبابها وطبيعة هذه العلاقة ولكي أصل منها الى اهتمام ابن ماجد الكبير بشرق افريقيا وصلته بها . والواقع انني لا آتي بشيء جديد اذا ما قلت أن علاقة العرب بشرق افريقيا بدأت منذ وقت مبكر قبل الاسلام ، وكان العمانيون فضلا عن اليمنيين والحضارمة «أول رواد لساحل أفريقيا الشرقي» وأكثر تأثيراً في المنطقة من أي فريق آخر .

وقد ساعدت عوامل عدة على الاتصال بين العمانيين وسكان شرق افريقيا يأتي في مقدمتها العلاقة المكانية المتأتية من موقع عمان الجغرافي المهم ، فهي تمتد مواجهة للخليج العربي والمحيط الهندي ، وتقع على طريق التجارة البحرية التي تأتي من أسواق المحيط الهندي ، وهذا ما جعلها مركزا لتجميع السلع الآتية من افريقيا ومن الهند والصين الى انحاء العالم المعروف آنذاك [١]

فالتجارة هي التي حملت العمانيين الى افريقيا ، وبحكم نمو التبادل التجاري بين الطرفين وصلت مراكب العمانيين الى مناطق سفالة (موزمبيق) والواق واق - آخر أرض الزنج [٢]

ان ارتباط الشاطيء العماني بالبحر منذ وجوده ، جعل من شعبه ملاحين مهرة وأصحاب سفن قاموا برحلات خطيرة عن طريق المحيط الى الاراضي في شرق افريقيا ، فقد ذكر المسعودي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أن «أهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج (خليج بربرى) الى جزيرة قنبلو في بحر الزنج وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار الزنج والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن الخليج المعروف بالبربري ، وهم يعرفونه ببحر بربري .. موجه عظيم كالجبال الشواهق ... وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد وينتهي هؤلاء في بحر الزنج الى قنبلو على ما ذكرنا ، والى بلاد سفالة والواق واق من اقاصي أرض الزنج واسافل من بحرهم ... وقد ركبت هذا البحر من مدينة سنجار الى بلاد عمان» [٣]

ان اشارة المسعودي هذه لتقوم دليلا قاطعا على وجود صلة مباشرة ونشطة بين عمان وشرق افريقيا ، وان أصحاب السفن العمانيين يسيرون

بمراكبهم الى أقصى جهات الساحل الشرقي لافريقيا .

ومما ساعد عرب عمان في التوجه البحري والتجاري نحو شرق افريقيا معرفتهم الجيدة بالبحر وطرق الملاحة وقوانينها ، ولا سيما الرياح الموسمية التي تهب على منطقة المحيط الهندي ، والتي مكنت سفنهم الشراعية من القيام برحلتين منتظمتين في السنة بأقل مجهود - ففي الخريف تندفع الرياح نحو الجنوب الغربي فتخرج السفن من خليج عمان الى المحيط الهندي ثم تسير بمحاذاة الساحل الافريقي . وفي الربيع تندفع الرياح باتجاه شمالي شرقي بحيث تمكن السفن من العودة الى قواعدها في ساحل عمان . وهكذا استغل أهل عمان مهارتهم البحرية فاندفعوا الى الشرق الافريقي خدمة لأغراضهم التجارية(٤)

وفضلا عن ذلك فقد أسهمت الاوضاع السياسية والدينية بعد تكوين الدولة العربية في عمان في هجرة الكثير من العمانيين الى شرق افريقيا والاستقرار فيها لبعد هذه المنطقة عن الاحداث في الخليج العربي . ففي النصف الاول من القرن الاول للهجرة/ السابع للميلاد ، وبعد انتفاضة حكام عمان الازديين من آل الجلندي على حكم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، هاجر سليمان وسعيد ابنا الجلندي مع بني قومهم الى شرق افريقيا ، بعد هزيمتهم على يد جيش الخليفة الذي أرسله الى عمان بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي عامله على العراق من أجل اخضاع عمان لسلطة الخلافة أولا ومن أجل السيطرة على الطريق التجارية البحرية التي تربط عمان بالشرق الاقصى من جهة وشرق افريقيا من جهة أخرى (٥)

ويعتقد أن هذه هي أول هجرة عربية الى مناطق الساحل الشرقي لافريقيا وهذا يعني أن العمانيين أول من أقام مستعمرات لهم في هذه الجهات (٦)

ولا نعرف على وجه الدقة المكان الذي استقر فيه هؤلاء الازد ، ولكن المعروف أنهم اقاموا في باتا (احدى جزر أرخبيل لامو شمالي كينيا ، بل تذهب الروايات الى أنهم أسسوا مدينة باتا (٧)

أما الهجرة العمانية الاخرى المهمة الى شرق أفريقيا فهي هجرة الاسرة النبهانية . والمعروف أن القبائل النبهانية كانت قد فرضت سيطرتها على عمان في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي . وبعد خلافاتهم مع اليعاربة وانهيار دولتهم هاجر النبهانيون (عام ٦٠١هـ/١٢٠٣م) ، بزعامة سليمان النبهاني الى شرق افريقيا واستقروا في مدينة باتا . وقد تزوج الحاكم النبهاني من ابنة حاكم باتا العربي البتاوي وأصبح حاكما على المنطقة ، كما أن باتا نفسها أصبحت مركزا للسلطة النبهانية التي استحوذت على ساحل افريقيا الشرقي . وغدت باتا في

القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي أقوى دولة على الساحل ، وانتعشت فيها حركة التجارة ، وظلت هكذا حتى القرن التاسع عشر الميلادي [٨]

وبذلك يكون العمانيون قد نجحوا في مد سلطانهم إلى ساحل افريقيا الشرقي واقامة امارات تابعة لهم .

وفي ضوء العلاقات الوثيقة لعمان بشرق افريقيا ، يبدو طبيعيا أن يكون لرجل البحار ابن ماجد العماني اهتمام كبير بها ، وهذا ما سنحاول بحثه في الصفحات التالية .

## ابن ماجد وشرق افريقيا :

دفع اهتمام العمانيين باقامة علاقات بحرية وتجارية وسياسية مع شرق افريقيا ، البعض من رجالها لدراسة قواعد واصول الابحار اليها بل وتأليف مجموعة كبيرة أو صغيرة من المقالات عنها ، والى هذه المجموعة ينتسب ابن ماجد .

لا نجد صعوبة في التعرف على ابن ماجد ، فهو يعرف بأصله ونسبه وثقافته ونتاجه العلمي الذي يعد اسهاما مهما في مجال الحضارة الانسانية . فاسمه الكامل شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي [٩]

ويدل نسبة على أن أصل أسرته من وسط الجزيرة العربية من . نجد في الحجاز . أما هو نفسه فمدينته جلفار (عمان سابقا ورأس الخيمة حاليا) [١٠]

وينحدر ابن ماجد من اسرة ربابنه ، فقد ورث العمل في البحر من جده وأبيه فقد كان جده ملاحا مشهورا ، أما أبوه فقد كان يلقب (بربان البحرين)، وقد دون تجاربه الملاحية في مصنف ضخم هو (ارجوزته الحجازية) [١١]

ونشأ ابن ماجد وترعرع في بيئة بحرية وأسرة اهتمت بالبحر ، فأثر ذلك في اختيار مهنته كملاح يركب البحار الى أخر أيام حياته التي عاشها في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ، مع العلم اننا نجهل تاريخ ميلاده او وفاته .

كانت شرق افريقيا واحدة من الجهات التي ، قصدها ابن ماجد وهو يقود مركبه في البحار [١٢]

أما متى بدأت علاقته بشرق أفريقيا ، فليس لدينا أي إشارة عن ذلك ، ولكن من الواضح انها بدأت مع بداية اهتمامه بالبحر وركوبة فيه ، والمعروف أن ابن ماجد كان قد تولى قيادة المراكب وهو بعد حدث صغير مع أبيه وهو في سن العاشرة من عمره ، وعند بلوغه سن العشرين تولى مسؤلية المركب مسؤولية تامة [١٣]

فقاد سفن المسافرين والتجار من عمان الى شرق افريقيا .

ان زيارات ابن ماجد الى شرق افريقيا التي لا تعد ولا تحصى ، ولمدة تزيد على نصف قرن ، قد اكتسبت تجربة عميقة عن المنطقة وسكانها ، وحكامها ومنتجاتها ، وجغرافيتها ،

وفنون الملاحة البحرية في مياهها ، كما انها اطلعته على ما عند سكان المنطقة من معرفة ملاحية وجغرافية للمياه والسواحل وقد أخذ منها الصحيح وانتقد الخطأ وصوبه [١٤]

كانت تجربة ابن ماجد الشخصية الغنية في مسالك البحار (وضمنها مياه شرق افريقيا) ، فضلا عن تجربة جده وابيه التي أخذها ، قد أغنتها اطلاعاته الواسعة على عدد من مؤلفات من سبقوه في ميدان اختصاصه [١٥] فضلا عن المؤلفات الاخرى في ميادين متعددة [١٦] . فقد واظب ابن ماجد على طلب المعرفة التي نذر نفسه لها واجتهد في سؤال معاصريه طوال حياته [١٧] .

بدأ ابن ماجد ، وبما أحرزه من تجربة شخصية طويلة ، بتحبير مؤلفاته شعرا ونثرا عن المناطق التي رحل اليها ومن بينها شرق افريقيا ، والتي أثبت فيها مقدرة نادرة في معرفة سواحل المحيط الهندي ، ونال الحظوة عند بعض حكام شرق افريقيا [١٨] .

## مؤلفات ابن ماجد عن شرق افريقيا :

ذاع صيت ابن ماجد ليس كملاح محنك بل ككاتب كثير الانتاج أيضا . وقد بقي من مؤلفاته الى اليوم ما يربو على الأربعين مؤلفا شعرا ونثرا . والمهم في الامر ان ابن ماجد قد خصص نصيبا مهما في مؤلفاته عن شرق افريقيا .

وفي كتابة «الفوائد في اصول علم البحر والقواعد» يجد الباحث شذرات مهمة وطريفة عن شرق افريقيا ، وهو الكتاب الوحيد الذي كتبه بالنثر .

أما تاريخ تدوينه فان ابن ماجد أثناء عرضه للكتاب يذكر عدة تواريخ [١٩] . مما يستدل منه على أن المؤلف قد أضاف اليه عدة مرات وأعاد تنقيحه بصورة يمكن القول بأن الكتاب قد كتب بين عامي ٨٨٠ - ٨٩٥هـ/ ١٤٧٥ - ١٤٨٩م و يبدأ الكتاب بالتاريخ الاول .

ويعكس ابن ماجد في كتابه أحسن ما حصل عليه من خبرات علمية اكتسبها عبر عدة عقود كقائد بحرى أثناء رحلاته فى المحيط الهندى . كما يستعرض فيه المعلومات الواسعة عندما ينقل عن عدد كبير ممن سبقوه فى مضمار الجغرافية و الملاحة والفلك ، ومبينا ضعف تأليفهم ، فيرى نفسه مدفوعا الى نشر ما عنده خشية الضياع ولكى تستفيد منه الاجيال بعده . ويحاول ابن ماجد أن يشعر القارىء بأن ما صنفه فى كتاب « الفوائد » قد نال استحسان معاصريه من أهل مهنته وعملوا به واعتمدوا عليه [٢٠] .

ويعد ابن ماجد على حق فى ذلك ، اذ أثار كتابه هذا ليس اعجاب معاصريه فحسب ، بل الكتاب المحدثين أيضا ، الذين عدوه ذروة ما الف فى مجال الملاحة والفلك ، وأول مؤلف للمرشدات البحرية الحديثة[٢١] .

وكتاب « الفوائد » مبوب الى اثنى عشر قسما يطلق المؤلف على كل منها أسم « فائدة » ، وتحتوى بعض هذه

الاقسام على معلومات قليلة غير انها مهمة عن شرق افريقيا يمكن حصرها بالآتي :

١ ـ في الفائدة الرابعة المخصصة للمنازل وورود الرياح وتسمى ( الاخنان ) المرتبطة بطلوع نجوم معينة ومغيبها ، يشير ابن ماجد الى ( الاخنان ) الخاصة بالساحل الافريقي التى يجب أن يعرفها ملاحو هذه المياه[٢٢] .

٢ ـ في الفائدة التاسعة التى تتعلق بدورة البحر على جميع الدنيا ، فيها وصف للسواحل، ومنها ساحل افريقيا الشرقي باقسامه المتعددة ( بربرا الزنج ، سفاله ، وما بعدها ) والمدن المنتشره على ساحله[٢٣] .

٣ ـ والفائدة التاسعة تهتم ايضا بوصف الجزر الكبار المشهورات والمعمورات حيث نجد ذكرا لبعض جزر شرق افريقيا ، كجزر القمر ، وجزيرة زنجبار[٢٤] .

٤ ـ اما الفائدة الحادية عشره التى يتناول الكلام فيها مواسم السفر في البحر ، تجدها تتضمن السفر الى شرق افريقيا[٢٥] .

وسوف نفصل فى قيمه هذه المعلومات وأهميتها فى الصفحات التالية :

أما المصنف الثاني الذي خصصه ابن ماجد عن شرق افريقيا ، فهو أرجوزته المسماه بـ ( السفالية ) ، نسبة الى منطقة سفالة فى ساحل افريقيا الشرقي . ان هذه التسمية تعكس لنا مدى اهمية شرق افريقيا عند ابن ماجد ، وان هذه الاهمية كانت حجر الزاوية فى العلاقات العربية الافريقية في الفترة التي عاشها ابن ماجد أيضا.

وتعد « السفالية » صورة كاملة للساحل الافريقى الشرقي ودليلا للملاحه فيه . وتنحصر أهميتها ، بالنسبة للموضوع ، في كونها تتضمن معلومات جغرافية وتاريخية ودلالات سياسية فى غاية الاهمية ، وذلك فضلا عن الجوانب الاساسية المختلفة للملاحه في مياه شرق افريقيا .

ويبين ابن ماجد فى سفاليته سبب تأليفه لها والموضوعات التى كتبت فيها واهميتها بقوله :

هى سبعماية بيت تزيد عنها
عن أحمد السعدى أحفظها
وادع لى في الموت والحياة
من الالة غافر الزلات
نظمتها ولم أر السؤال
كلا ولا رأيت السائل
شتان بين السائل المجود .
وبين من لم للسؤال يهتدى
عرفتها حتى بقى ربانها
يسألنى عنها وعن شعبانها
وخصنى والى البلاد بالسفر
من دون غيرى بالهدى والظفر
لاشك ان من يرى بالعين
تركن اليه الناس باليقين
كفى بذا فى جودة السؤال
تصورت بالقلب بالكمال
شعبانها والبر والقياس
والريح والموسم ثم الناس

ثم المطارح ودخول الجـزر
حققت بالتدقيق اسم شور
واعبر لها بالحزم والصلاة
على النبى اتخذ وصاتى[٢٦]

فابن ماجد لم يؤلف سفاليته المتكونه من أكثر من سبعمائة بيت من الشعر ، الا بعد أن عرف شرق افريقيا وتخصص بالسفر الى تلك البلاد ، ونال الحظوة عند حكامها الى درجة أنه منح حق السفر اليها دون غيره لأنه اهتدى الى طرقها ونجح فى الوصول اليها دائما ، فكان ذلك سببا في لجوء الناس وربابنة السفن عن قناعة اليه يسألونه أن يصف لهم شرق افريقيا تاركين غيره من الذين يؤمون تلك البلاد . عرف ابن ماجد تلك المنطقة بالعين المجردة ، فكتب عن موضوعات متنوعة فى سفاليته ، فوصف بر تلك المنطقة وشعابها ، وقياسات ومواسم السفر والرياح التى يجب ان يسافر الناس فيها ، وناس تلك المنطقة، كما ذكر المطارح ودخول الجزر ولم يكتب ذلك كله الا بعد التحقيق الدقيق ، فحق له بعد ذلك أن يطلب ممن يقرأ قصيدته السفالية بأن يدعـو له بالغفران .

أما الطريقة التى دون بها ابن ماجد معلوماته عن شرق افريقيا ، فقد اتصفت ـ كما يذكر هو نفسه فى ( السفالية ) ـ بالشمول ، والصدق ، وصحة المعلومات بسبب علمه الكبير بالمنطقة ومعرفته بها . كما سجل ما هو متفق عليه وما يلائم المسافر الى تلك المناطق ويهديه الى نهايتها . فابن ماجد بعد ذلك محق بأن يعتبر هذه ( الارجوزة ) الدليل الوحيد للطريق الى جنـوب السـاحـل الافـريقي الشرقي[٢٧] .

اما مصادر كتابته للسفالية فلا نجد لها ذكرا فى الارجوزة بصورة صريحة . ولكن كثيراً ما نجده يشير الى انـه أخـذ ( عـن ذوى التجارب )[٢٨] . ونقل ( عن خابر قد جربه )[٢٩] ، ( وقيل لى )[٣٠] . و ( ممن يصدق هذا الخبر )[٣١] . فهو اذا لم يحدد مصادره ، وهذا يعنى أنه أخذ عمن سبقه فى المهنة من الملاحين ذوى التجارب والمعرفة .

كما أنه قرأ المرشدات البحرية ، ولكنه لم يعتمدها كمصدر من مصادر تدوينه للسفالية لانها عديمة الفائدة بعـد تبدل الاسمـاء وتغيرهـا فى أيامه[٣٢] . كما انه أخـذ بعض المعلـومات عن الافـرنـج ( يعني البرتغاليين ) بعد وصولهم[٣٣] . أما المصادر المتعلقة بتجاربه الخاصة فلها مكان واسع فى سفاليته. حيث يسجل ابن ماجد مرات عديدة ان الظواهر والموضوعات التى يصفها قد رآها وخبرها بنفسه[٣٤] . فضلا عن تجاربه وخبرته الطويلة فى مهنته . حمل ابن ماجد ذلك كله في ذهنه عندما بدأ يكتب عن شرق افريقيا فكان ماكتبه فى مجموعه يمثل صورة كاملة للساحل الافريقي الشرقي . ويمكن أن نقسم مادونه عن تلك المنطقة الى قسمين الاول جغرافي وملاحي والثانى تاريخى .

## معلومات ابن ماجد الجغرافية والملاحية عن شرق افريقيا :

### ١. المعلومات الجغرافية :

يعد الجانب الجغرافي الذي كتبه ابن ماجد عن شرق افريقيا مبنيا على المعلومات المأخوذة والمنقولة من الكتب الجغرافية الوسيطة للجغرافيين العرب فضلا عما عرفة عن جغرافية تلك المنطقة من خلال خبرته الشخصية .

قسم ابن ماجد الساحل الافريقي الشرقي الى اربعة أقسام :

بربرا ، والزنج ، وسفالة والمنطقة الرابعة ما يقع بعد سفالة من بلاد(٣٥) . وهو نفس التقسيم الذي اتبعة الجغرافيون العرب مثل المسعودى في كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الحموى في كتابه « معجم البلدان » وابن سعيد في كتابه « الجغرافية » ، ولكن مما يثير الانتباه ان الجغرافيين العرب يطلقون على المنطقة الرابعة في تقسيم ساحل افريقيا الشرقي اسم ( واق واق ) بعدها ارض مجهولة غامضة لم يصلوا إليها(٣٦) . ولاترد التسمية عند ابن ماجد بهذه الصورة ، مما يشير الى عدم استعمالها في أيامه والسبب واضح في ذلك وهو وصول العرب المسلمين الى تلك المنطقة ، فلم تعد المناطق بعد سفالة مجهولة غامضة عندهم ، فقد ذكر ابن ماجد عددا من مدنها وجزرها منها مليونى ، وخور مومة ، وملاتى ،(٣٧) . وكلوانى ومن جزرها شربوه وجزيرة وازه وهي آخر ما وصله العرب في أيام ابن ماجد(٣٨) . وبهذا يكون ابن ماجد قد أضاف اضافة مهمة إلى معلومات الجغرافيين العرب الذين سبقوه بخاصة فيما يتعلق بتعريف المنطقة الرابعة وتقسيمها للساحل الافريقي الشرقي .

لا نجد في تحديد المناطق الثلاث المتبقية ( بربرا ، والزنج ، وسفالة اختلافا واضحا بين ابن ماجد والجغرافيين العرب الذين سبقوه . فبلاد بربرا وخليجها ( الخليج البربرى ) تبدأ في أرض الحبشة وتنتهى ببلاد الزنج سواء عند ابن ماجد(٣٩) . أو عند من سبقوه(٤٠) . باستثناء أنه أضاف مزيدا من المعلومات عن هذه المنطقة حيث يذكر مدنها ، فبدايتها عنده بندر موسى وجردفون ثم نجد حافون باتجاه الجنوب(٤١) .

اما ارض الزنج ، فقد حددها الجغرافيون العرب بصورة دقيقه قبل ان يكتب ابن ماجد عن شرق افريقيا بعدة قرون ، وهى المنطقة الممتدة بين مدينة مقديشيو ( في الصومال ) الى بلاد سفالة(٤٢) . فقد قدر المسعودى مساحة هذه المنطقة بنحو سبعمائة فرسخ بما فيها الاودية والجبال والرمال(٤٣) أما ابن ماجد فقد أعطانا مزيدا من المعلومات عن مدن هذه المنطقة والشريط الساحلى المتكون من عدد كبير من الجزر اذ يتكلم عن مقديشيو وبراوة ومنبسه وكلوه . وعن

الجزر الكبيرة مثل رنجبار والعديد من الجزر الصغيرة(٤٤) . ومما يثير الدهشة ان ابن ماجد يضفى على منطقة الزنج الممتدة من مقديشيو الى سفالة أسم أرض الحبشة الجنوبية الشرقية(٤٥) . وهي تسمية لم ترد عند الجغرافيين العرب الذين سبقوه ف وصف هذه المنطقة . ويبدو أنه أراد بهذه التسمية تحديد موقع المنطقة وكونها جزءا من أرض الحبشه .

أما سفالة ، القسم الثالث من الساحل الافريقي الشرقي ، فيسميها ابن ماجد سفال وسفاليه وسفالة(٤٦) . وهي أرض الذهب عند من كتب قبله عن سفالة(٤٧) . وقد فصل ابن ماجد ف ذكر موانئها وجزرها بشكل لم يسبقه إليه أحد .

وتتضح معلومات ابن ماجد الجغرافية عندما يصف مدن الساحل الافريقي الشرقي . فهو يحدد الموقع ، المسافات بين المدن ، طبيعة الارض والمياه فضلا عن حديثه أحيانا عن المزروعات والحيوانات والثروة المعدنية .

كذلك نجده يصف جغرافية الشريط الساحلى المتكون من الجزر سواء أكانت كبيرة أم صغيرة .

وعندما يتكلم ابن ماجد عن مدن بلاد الزنج يبدأ بمقديشيو ، ثم ينتقل الى مدينة مركة وبراوة ، حيث نجده يقدر المسافة بينهما بيوم واحد ، فيقول :

لمركة ثم الى براوة
تقطعها ف يوم بالتلاوة(٤٨)

كما يشير الى شدة الحر في هذه المنطقة ، لاسيما قبل الدخول الى براوة ثم يسير ابن ماجد جنوبا الى مدينة كتاوة ( باتا ) ، حيث يصف الخور الطويل الذي تقع في بدايته وعلى الجهة اليمنى بالضبط ، والى اليسار من هذا الخور تقع مدينة لامو(٤٩) . والمعروف أن باتا ( كتاوة ) ولامو مدينتان من جزر أرخبيل لامو ومن الصعب الفصل بينهما ، فالاولى كانت العاصمة السياسية والثانية العاصمة التجارية في هذا الارخبيل(٥٠) ولذا نجد أن ابن ماجد قد أشار إلى الاثنين معا .

يسافر ابن ماجد بعد ذلك الى مالندى ويصف مالندى بأنها واقفة على رأس بحرى طويل واضح للمسافر(٥١) . والى الجنوب منها مدينة منبسة الواقعة على ضفة خور كبير تدخلة المراكب ، ويصفها بأنها جزيرة قريبة جدا من البر(٥٢) . وهذا الوصف يطابق ما جاء عند من سبقه من الجغرافيين العرب(٥٣) . كما يشير الى احدى أهم مميزات منبسة وهى عمق البحر قربها وكفايته لحمل السفن للدخول الى مينائها(٥٤) ، هذا ما يؤكده الربان الفرنسي جيان الذي زار المنطقة بعد ابن ماجد(٥٥) .

ينتقل ابن ماجد بعد ذلك الى وصف مدينة من أهم مدن الساحل ف أيامه وهي مدينة كلوة . وهنا نجده يسهب في وصف الجزر القريبة منها ، ويشير الى تميز هذه الجزر بوجود الاشجار العالية فيها(٥٦) . كما نجده يحذر

المسافرين من شعب كلوة ويطلب منهم مجاراته حتى يدخل البحر ومن هناك الى المدينة(٥٧) .

ومن كلوة الى بلاد سفالة ، حيث ينصح ابن ماجد بالسير بمحاذاة الشاطىء لأن طريق سفالة غير مأمون لاختلاف الريح فيه . كما يشير الى علو الماء في مدخل منطقة سفالة ، ومن علامات الدخول الى خور هذه المنطقة وجود الاشجار(٥٨) .

ويشير ابن ماجد بصورة متكررة الى وجود الذهب في سفالة ، ويحدد مناجمه فيقول بأنها تقع في منطقة مياه ( انهار ) حيث يسكن هناك مجموعات من الناس الهمج ، كما يذكر كثرة الحيوانات المتوحشة من السباع والفيلة فيها(٥٩) .

ويذكر ابن ماجد أن الجزر الواقعة بعد مناطق سفالة مثل جزيرة شربونة تحتوى على العاج والعنبر(٦٠) .
وأخيرا يصف المستنقعات والجبال الواقعة جنوب منطقة سفالة ، ويقول أن جزيرة وازة آخر ما وصل اليه العرب في سفراتهم ، أما بعدها فلا يعلمه الا الله ، حيث يدور البر الى الغرب.

ما يدهم سوى جزيرة وازة
ولا جنوبيها أحد قد جازه
درقاق اوساخ معها جبال
يعلمها ربي ذو الجلال
هو الذي تعرفه يا صاحب
والبر هناك يدور في المغارب(٦١)

ويبدو في هذه الابيات أن ابن ماجد لم يصل الى تلك المناطق الواقعة جنوب سفالة .

وتنال جزر شرق افريقيا اهتمام ابن ماجد فمن الجزر التي يذكرها جزيرة القمر وهي عنده تقع على يسار أرض سفالة لاتجد في يمينها أي برارى وجنوبها البحر بظلماته ممتد(٦٢) .
ويعد ابن ماجد جزيرة القمر من الجزر الكبار ، ومع ذلك لا يذكر مساحتها لاختلاف الآراء في ذلك ، فيقول :

« واختلف الرواة في طولها وعرضها ، لأنها مجنبة عن عمارة الدنيا وعن الاقاليم المسكونة في الدنيا . فلذلك وقع فيها الاشتباه وقد ذكروا في الكتب الكبار أنها أعظم جزائر الارض المعمورة ، وطولها قريب عشرين درجة ، وبينها وبين بر سفالة وجزره جزائر وشعبان ، ومع كل ذلك لا يمنع المسافر أن يجوز بينهما وجزيرة القمر منسوبة لقامر بن عامر بن سام بن نوح عليه السلام .(٦٣) .

وهذه المرة الوحيدة التى يحاول فيها ابن ماجد ذكر الاساطير الخاصة بشرق افريقيا ، ويبدو من كلامه أنه غير مقتنع بها .

ومن الجزر التى جاء ذكرها في كتابات ابن ماجد ( منفية ) ، حيث يذكر انها جزيرة تمر بها المراكب قبل وصولها الى كلوة وهى مثلثة الشكل معمورة بالناس ويبدو أن ابن ماجد معجب بهذه الجزيرة على الرغم من صغرها ، فيقول عنها :

لمنفية نعم فيها جزيرة
مختصرة مثلثة معمورة(٦٤)

اما جزيرة واسينى ، الواقعة قرب مدينة منبسة ، فيبدو أنها تتصل بمستنقع ناحية الجنوب ، ولهذا

يخطىء ابن ماجد الزنوج من سكان المنطقة الذين يعتقدون ان المستنقعات تتصل بها من ناحية الشمال ، فيقول :

كذلك واسينى عليها وسخ
متصلا الى الجنوب يا خى
وقالت الزنوج أن منها
لكن في القلب فاحفظها
وذاك عندى خطأ يا صاح
اسمع لوصفى تلتقى الصلاح[٦٥]

ونظرا لوجود المستنقعات هذه يطلب ابن ماجد من المسافر فى هذه المنطقة ان يلتزم بالمجرى المعروف في سيره والذي يربط واسينى بزنجبار والواقعة جنوبها[٦٦] .

يتقدم ابن ماجد بعد ذلك جنوبها الى الجزيرة الخضراء ، واصفا للمسافرين الطريق المسلوك الذي يربطها مع جزيرة القمر جنوبها ، ويعد ابن ماجد الخضراء من الجزر الكبار في المنطقة[٦٧] ، كما يصف عددا من الجزر الصغيرة والمنتشرة بين واسينى وزنجبار منها ( رأس الحمام ) ، والمستنقعات الخفية التي يجب على المسافر تجنبها بالميل الى ناحية اليمين من أجل سلامته . ثم يذكر أن السفر من رأس الحمام ولمدة ليلة واحدة يوصل المركب الى جزيرة زنجبار[٦٨] .

وجزيرة زنجبار من الجزر التى تنال الحظوة في كتابات ابن ماجد إذ يعدها احدى الجزر الكبار في شرق افريقيا . فهو يقول :

فكل هذه الجزر كبار
اعني لك الخضرا وزنجبار[٦٩]

ويذكر ان حولها ما يربو على الست عشرة جزيرة من ناحية الغرب والجنوب وتكثر المستنقعات فيها بين هذه الجزر .

وحول زنجبار هجلةجزر
قريب ستة عشر أعلم وأدرى
وهي في الجنوب والمغارب
عن زنجبار برسخ يا صاحب[٧٠]

ويذكر من هذه الجزر الست عشرة ، جزيرة الكافر ورأس النيل وكوالة وجزيرة الشرفاء واسمها الزنجي كما ذكره ابن ماجد ( ايكوها جوندة )[٧١] .

ويعطي ابن ماجد صفة العظمة لجزيرة زنجبار ويعدها مركزاً للحكم الاسلامي منذ وقت مبكر . ومازالت كذلك فى زمانه . فقد عد المساجد الجامعة فيها فوجدها أربعين مسجدا جامعا ، وهو يقول في ذلك :

وزنجبار جزيرة عظيمة
باربعين خطبة قديمة

ويقول عنها في الفوائد أيضا « ومنها أربعون خطبة ، يحكم عليها سلاطين الاسلام »[٧٢] . ويحفظ ابن ماجد عدة أسطر فى كتابه الفوائد ايضا لجزيرة زنجبار واصفا طبيعتها الجرافية ، من أنهار وأشجار ومناخ ، فيقول : « ممتدة على أرض الزنج وهي ذات أشجار وأنهار .. وهى جزيرة وخيمة »[٧٣] .

**٢ ـ المعلومات الملاحية :**

تشكل المعلومات الملاحية والفلكية عند ابن ماجد جزءا مهما في كتاباته عن شرق افريقيا فقد أعدها ملامح دائب السفر وأحد ربابنة السفن المشهورين في مياه تلك المنطقة ، وسنحاول أن نتناول شذرات متفرقة منها للتدليل على أهمية وضرورة هذه المعلومات للمسافرين والتجار من مناطق شرق افريقيا واليها .. ولندع ابن ماجد يفصل فيما ذكره من معلومات ملاحية وفلكية تخص شرق افريقيا ـ فهو يقول في مقدمة ارجوزته المعروفة « بالسفالية » والتى خصها لشرق افريقيا الآتى :

هذه الارجوزة المسماة بالسفالية ومعناها يقتطى معرفة المجارى والقياسات من نواحي الساحل والزنج وأرض السفال والقمر وجزره ونواد علوم جميع ما في تلك النواحي الى آخر الارض في الجنوب وذكرت قياسات يعرف بهم المعلم النقصان والزيادة في جميع الاخنان ووصف نوادر في تلك الطريق من القياسات والدير والمجارى وسكان الارض وملوكها ومواسمها وسفرها على ما يليق بذلك المكان »(٧٤) .

وقال شعرا في السفالية ، يتضمن الموضوع نفسه :

ذكرت ما خليت منه مجرى
ان جزت فى عمرك هذا البحرا
تلقى بها قولى وحجة فعلى
لأنه علم كبير عقلى
وصح أن البر والقمر هنا
ثمانية أزوام ما بينهما
في آخر القمر في الجنوب
متفق عليه يا حبيبى
وجزر طير الرخ والقصار
من نسل آدم كن بذاك دارى
ثم الكور في القياس والدبر
أو شعب أو جزيرة بلا بشر
أو شدة الماء ومرسى ترسه
فالفحل من دبر فيه نفسه
دفق وحقق اذا أخذت منها
خلاص ياربان من صنفها
ثم تأمله بذى السفالية
تهديك فى الجنوب خذ عقاليه
لا غيرها فى هذه الطريق
نعم ، منها علم بالتحقيق(٧٥)

وهكذا يذكر ابن ماجد كل ما يحتاجه المسافر الى مناطق شرق افريقيا من أمور ملاحية وفلكية ، فهو يبدأ بتعريف القياسات التى يجب اتباعها فى تحديد المجرى الذي يتخذه المسافر فى مياه شرق افريقيا . كما يعطي أوصافا لطبيعة المجري من حيث عمقه أو ضحالة المياه فيه ثم بيان حركة المد والجزر والشعب والرؤوس والجبال والمنارات فى تلك المياه ، كما يفصل فى الدوامات واتجاه الرياح في ذلك الساحل في مختلف أوقات السنة التي تحدد مواسم السفر . وفي رأيه أن من يتبع تعليماته بدقه وتحقيق يصل الى أقصى مناطق شرق افريقيا بسلام(٧٦) .

ففي مواسم السفر الى شرق افريقيا ، يبدو من كلام ابن ماجد أن لكل منطقة من مناطق الساحل موسم

خاص للسفر اليه . وقد فصل في ذلك في « ارجوزته السفالية » فهناك موسم للسفر إلى مقديشيو وآخر الى كلوة وثالث الى سفالة وجزر القمر . وهذه المواسم تتفق مع مواسم الرياح وملاءمتها للسفر في البحر [٧٧] . ويرى ابن ماجد أن مواسم السفر تتحكم فيها حالات المد والجزر والامطار أيضا [٧٨] .

أما مسألة الكواكب ( النجوم ) التي تتحكم في تحديد الخروج أو عدمه الى بحر الشرق الافريقي ، فيفصل ابن ماجد فيها ويبين الاتجاه الذي يزيد أو ينقص معه تأثير هذا العامل . [٧٩]

ومن المرشدات البحرية التى يتعرض ابن ماجد الى ذكرها ، فضلا عن النجوم ، القاع الطينى والحشائش والنباتات وبعض أنواع الطيور والاسماك ، فمثلا من يرى طيور ( القرعا والمنجي » وأسماك ( البتان والبهلول ) عليه أن يعرف أن بينه وبين بر الصومال مسير نحو ١٢ ساعة تقريبا بالشراع اذا كانت الريح مواتية[٨٠] .

وهكذا كان ابن ماجد الملاح يجمع الخبرة بعالم البحر والعلم بطرقه الملاحية البحرية وبالالتها والظواهر البحرية ، وقد سجلها فى مصنفاته ليفيد منها كل من ركب مياه شرق افريقيا .

## معلومات ابن ماجد التاريخية عن شرق افريقيا :

تعد معلومات ابن ماجد التاريخية عن شرق افريقيا ، اقل قسم كتب فيه إذا قورنت بمعلوماته الجغرافية والملاحية . ولكن قيمة هذه المعلومات تكمن في كونها قائمة على مشاهداته الشخصية ، لذا يمكن استخدامها فى اثبات ونفي الاحداث التاريخية التى تتضمنها الكتب التاريخية والجغرافية التى اهتمت بالكتابة عن تلك المنطقة .

يشمل ما أورده ابن ماجد من معلومات تاريخية عن شرق افريقيا جوانب سياسية واقتصادية . ففي القسم السياسي تأتى معلوماته في سياق الحديث عن مدن وجزر تلك المنطقة حيث يشير الى الوضع السياسي فيها بين الحين والآخر .

وفي الوقت الذي لاتنال مدن ساحل منطقة ( بربرا ) منه سوى ذكر أسماء بعضها[٨١] . نجده يبدأ بذكر مدن ( بلاد الزنج ) مبتدئا بمقديشيو تلك المدينة التى بلغت أوج ازدهارها في القرنين ٧ و ٨هـ ١٣ و ١٤م ، ونالت اهتمام الكثير من الكتاب العرب .

ففي القرن ٧هـ / ١٣م يشير ابن سعيد أن مدينة مقديشيو أول أرض الزنج وهى « مدينة الاسلام المشهورة في ذلك الصقع المترددة الذكر على ألسن المسافرين »[٨٢] . اما ابن بطوطة في القرن ٨هـ / ٤م فإنه يتكلم بصورة تفصيلية عن هذه المدينة ويعدها مركز الحكم العربى الاسلامي في المنطقة ويذكر أن العرب أقاموا فيها حكما قائما على الشورى[٨٣] .

اما ابن ماجد فلم ترد عنه أى من هـذه التفاصيـل عن مقديشيـو ، والسبب فى ذلك يعود لأن هذه المدينة كانت في أيامه قد فقدت أهميتها السياسة والتجارية معا ، حيث بدأ النفوذ العربى الاسلامى يمتد نحو الجنوب بصورة أكثر ، فحرمها من اهميتها كمركز سياسي وتجاري منذ منتصف القرن ٨هـ/ ١٤م .(٨٤) .

وكذلك الحال بالنسبة لمدن مركة وبراوة وكاوة ولامو .. الواقعة جنوب مقديشيو حيث لم يهتم ابن ماجد الا بالنواحى الجغرافية والملاحية التي تتعلق بها(٨٥) .

يسافر ابن ماجد بعد ذلك الى مدينة مالندى ، تلك المدينة الصغيرة التى لم تحظ باهتمام الكتاب العرب حتى القرن ٦هـ / ١٢م . حيث ذكرها الادريسى لاول مرة على انها مدينة من مدن الزنوج . المهمة(٨٦) . وقد أخذت هذه المدينة في الازدهار حتى بلغت مركزا مرموقا فى القرن ٩هـ / ١٥م ، الا أن ذلك الازدهار لم يؤهلهـا للسيطرة السياسيـة على منـاطق الساحل الافريقي الاخرى . واكتفت بمركزها التجاري في المنطقة ، ومن هذا المنطلق ، على ما يبدو ، اراد ابن مـاجد ان يشـد انتباه المسـافر اليها(٨٧) .

ينتقل ابن ماجد الى مدينة كلوة ، ويسميها كلوة الملوك ويعدها مقرا لحكام كثير من مناطق السـاحـل الافريقي على أيامه ، ترد كلوة في ارجوزة ابن ماجـد ( السفاليـة ) بصورة متكررة ، مؤكدا في ذلك على سيطرة هذه المدينة على كثير من مدن الساحل مثل منبسه وسفالة الواقعة جنوبها وزنجبار وما فيا الواقعـة شمالها(٨٨) . بلغت مدينة كلوة منذ القرن ٦هـ / ١٢م درجة كبيرة من السطوة والنفوذ . وقد منحها موقعها المتوسط فى ساحل افريقيا الشرقي قوة سياسية في المنطقة ، فاستحوذت عليهـا بالقـوة تارة وبـالسياسـة والمصاهرة تارة أخرى ، ولم تفقد نفوذها الا بعد مجيء البرتغاليين الى المنطقة(٨٩) .

أما منطقة مناجم الذهب فى سفالة فيبدو أنها كانت مستقلة بنفسها وليس لاحد سيادة عليها ، ولها ملك خـاص بها يسميـة ابن مـاجـد ( الزنباوى ) ويقول أن مركز حكمه في مدينة ( خور كوامه ) ، والناس الذين يحكمهم ملك هذه المنطقة ما زالوا كفاراً .(٩٠) .

كتب ابن ماجد عن مدن شرق افريقيا بصورة متفرقة دون أن يحاول الربط بينها ، وهو بهذا يؤكد ما نعرفه عن الـوضـع السيـاسي للسـاحـل الافريقي الشرقي ، حيث أن العرب لم يستطيعوا ان يكونوا دولة واحدة قوية تجمعهم في تلك المنطقة ، بل كونوا امارات مستقلة عن بعضها البعض ، وان كان قسم من تلك الامارات قد فرض سيادة واسعة على المنطقة اجمعها(٩١) . اما ايام ابن ماجد فقد كان لكلوة دور السيادة على مناطق

الساحل شمالها وجنوبها ، كما أشرنا .

والشيء الذي يثير الدهشة ان ابن ماجد لم يشر الى الخلافات التى كانت قائمة بين بعض مشايخ الامارة فى هذا الساحل والتى أدت الى اخفاقها ، اذ كانت المنافسات على أشدها فيما بينهم من أجل توسيع مناطق نفوذهم على حساب البعض من جهة ، والسيطرة على مناطق الذهب فى سفالة الغنية من جهة أخرى ، وإنما اكتفى بذكر سيطرة كلوة على الساحل بما فيه سفالة(٩٢) .

وهناك ناحيه مهمة تخص الوضع السياسي للعرب فى منطقة شرق افريقيا قبل ابن ماجد وفي أيامه فالامارات العربية التى نشأت فى تلك المنطقة لم تتعمق الى الداخل لتفرض سيطرتها السياسية والحضارية ، وانما اكتفت باقامة علاقات تخدم مصالحها التجارية بشكل يؤمن لها وصول منتجات الداخل من ذهب وعاج وغيرهما(٩٣) .

وهذا الوضع يفسر لنا لماذا لم يكتب ابن ماجد الا عن مدن الساحل ولم يحاول أن يتعمق فى داخل شرق افريقيا ، بل نجده يشير صراحة الى أن مناطق العمق في المنطقة ما تزال مواطن الهمج والكفار لعدم وصول العرب المسلمين اليها(٩٤) .

أما أهم معلومة تاريخية وصلتنا عن ابن ماجد ، فهى تسجيله لدخول البرتغاليين الى شرق افريقيا ، وقد كان فيها شاهد عيان .

ان ارجوزة ابن ماجد ( السفالية ) هي الوحيدة التى جاء فيها ذكر الافرنج ( يقصد البرتغاليين ) ، حيث ورد أسمهم ١٤ مرة ، وجاء ذلك لاول مرة عند وصف الرياح الموسمية التى تهب على الشاطىء الشرقي لافريقيا لمنطقة كلوة ، وعدم معرفتهم بمواعيد هبوب هذه الرياح مما ادى الى الحاق الكوارث بسفنهم وهو يقول :

زلوا بها الافرنج علق الموسم
في عند ميكال بالتوهم
قام عليهم موج تلك الروس
في سفالة بقى معكوس
وانقلبت أدفالهم في الماء
والسفن فوق الما يا خائى
غرقا يرون بعضهم لبعض
وكن عارفا موسم تلك الارض(٩٥)

ويسجل لنا ابن ماجد ان الذي دفع الافرنج الى المجيء الى شرق افريقيا هو الطمع حيث كان هدفهم السيطرة على ما هو موجود فيها من معادن ، لاسيما في منطقة سفالة من ذهب ونحاس وفضه(٩٦) . وقد اشار ابن ماجد الى أن سفن الافرنج أبحرت بحذاء ساحل سفالة فى عام ٩٠٠هـ/١٤٩٥م وهى في طريقها الى الهند ، وبعد أن ظلت سنتين عادت هذه السفن الى شاطىء افريقيا الشرقي ، فيقول :

جارتها فى عام تسعماية
مراكب الافرنج يا خاية
تعبير عامين كاملين
فيها ومالوا الهند باليقين

من حاول ( السين يخاف مالا
ما يرتجي والا ترك الا مالا
ورجعوا من هندهم للزنج
في هذه الطريق الافرنج[٩٧]

واذا كانت اخبار ابن ماجد عن وصول البرتغاليين الى شرق افريقيا قد اتسمت في البداية بوصف هذا الوصول دون تعليق ، فاننا نجد أن ابن ماجد سرعان ما شاهد واقع الاستعمار البرتغالي بنظامه الدخيل على المحيط الهندي الذي أساء الى الملاحة العربية[٩٨] . وعرف عن كثب غزوهم للساحل الافريقي الشرقي وجزره ابتداء من المناطق الواقعة جنوب سفالة وامتلاكهم لها ، حيث يقول :

وسعدنا على الجنوب تأتي
جزر « شربوه » وهم ثلاث
ثلاثة مجربة محررة
عمن رآها من قبل مخبرة
وخشب الافرنج قد جاؤوها
وملكوها بعد أن حازوها
وما من بعدهم سوى جزيرة وازة
ولا جنوبيها أحد قد جازة[٩٩]

يظهر أن ابن ماجد مثل غيره ممن شهد وصول البرتغاليين لشرق افريقيا . لم يقدر أبعاد هذا الوصول . بل الأنكى من ذلك أن بعض سكان شرق افريقيا كانوا ظنوا أن البرتغاليين من المسلمين جاءوا من الغرب فقدموا المساعدة كما كانوا يفعلون مع المسلمين دائماً لمعرفتهم بأهدافهم ونواياهم تجاه المنطقة ولكن سرعان ما اتضحت الحقيقة للجميع بما فيهم أحمد بن ماجد نفسه . ولذا فقد اعتبر السيطرة على مناطق المحيط الهندي حالة حرب ، وتمنى لو أن الله أطال في عمره ليشهد ( زمان الصلح ) حتى يمكن أن يحقق آماله وأحلامه[١٠٠] .

لأنهم لم يتركوا هذا الطرف
فسوف علمهم لديك تعرف
ان طالت الأيام والليالي
فإنها تسفن على الزوال
لو كنت أحيا لزمان الصلح
كتبت علما يستحق المدح[١٠١] .

وهكذا فان أحلام ابن ماجد وأماله كانت في التخلص من السيطرة البرتغالية التي فرضت نفسها على الساحل الافريقي الشرقي بالقوة .

تعد معلومات ابن ماجد عن وصول البرتغاليين الى شرق افريقيا وسيطرتهم عليه مادة تاريخية ذات قيمة كبيرة لأنه شهد الأحداث بعينيه . فهو مصدر معاصر لا غنى للباحث عنه في تاريخ شرق افريقيا للقرن السادس عشر .

أما معلومات ابن ماجد الاقتصادية ، فعلى الرغم من قلتها فانها تفيدنا في رسم معالم النشاط التجاري الذي شهدته مناطق الشرق الافريقي . والذي اقترن بوصول العرب الى تلك المناطق . فقد كان العرب وحتى القرن ١٠ هـ/ ١٦م سادة المحيط الهندي والمتحكمين في تجارته . وقد نشطت تجارتهم في شرق افريقيا من أجل الحصول على

منتجاتها وحملها الى مراكز الاستهلاك ، وكانت أهم هذه المنتجات الذهب والفضة والعاج والحديد والعنبر وغيرها .

ان اهتمام العرب بتجارة الذهب في شرق افريقيا قد بلغت ذروتها في نهاية القرن ٩ هـ/ ١٥م وبداية القرن ١٠ هـ/ ١٦م(١٠٢) . ولذا يؤكد ابن ماجد ولمرات عديدة على منطقة سفالة حيث مناجم الذهب فيصف الطريق الملاحي التجاري الذي يؤدي اليها ابتداءً من الخليج العربي والجزيرة العربية ، مفصلاً في كل مرحلة من مراحله ، مبيناً للمسافر الموانىء والمدن الموجودة على طوله ، موضحاً مخاطر هذا الطريق ومصاعبه والأسس التي يجب مراعاتها في السير في مياه شرق أفريقيا وصولاً الى سفالة(١٠٣) .

تنال منطقة سفالة ، حيث معادن الذهب ، الحظوة في كتابات ابن ماجد كما أشرنا ، فقد وضح حدودها وأسماء مدنها وموانئها ، واصفاً بدقة مناجم الذهب في سفالة والتي تقع على مسيرة شهر من مدينة سفالة باتجاه الغرب من مناطق مغمورة بالمياه ( الأنهار ) ، وهذه المناجم هي امتداد لمناجم الذهب في النوبه . ويقدر ابن ماجد مساحة منجم ذهب سفالة بمسيرة سبعة أيام ، فهو يقول في ذلك :

مع هؤلاء المكين السفالى
ومعدن النوبه لهم يوالي
يتصلوا ببعضهم البعض
وبينهم البحر وحل بارض
راضي على البحر من المغارب
خبرني عنهم ذوي التجارب
مسيرة يا أخي سبعة أيام
يجون بالبشاشات يا همام(١٠٤)

وينظرون لبلوغ الكفرة
بل في بحر العرب فذا المخبرة

ومن السلع التجارية التي يذكر ابن ماجد المسافرين الى شرق أفريقيا بهاهي العاج والعنبر .

والمعروف ان هذه السلع متوفرة في عدة مناطق من شرق افريقيا ، ولكن ابن ماجد أراد التعرف بها حيث يذكر منها « ملنبوني » ( ميناء بين كلوة وسفالة ) ، جزيرة « شربوه » جنوب سفالة ، فيقول :

منها على القطب ملنبوني ترى
لمعدن الرجون ثم العنبرا(١٠٥)
وبعدها على الجنوب تأتي
جزيرة ( شربوه ) وهم ثلاث
أحمرهم يا صاحبي وشيكا
والعاج والعنبر فيها يديكا(١٠٦)

كما يشير ابن ماجد الى كثرة الحيوانات من السباع والفيلة في المناطق الواقعة جنوب سفالة ، ولعل هذه تذكرة للراغبين في الحصول على العاج والجلود(١٠٧) .

ويذكر ابن ماجد زوار المنطقة دائماً بالمراكز التجارية المهمة فيها ، فمثلاً يشير الى أن منبسه مركز تجاري غني :

فادخل « هنيت » بمسرات السفر
المنبسة فيها المبيع والظفر(١٠٨) .

والـواقع ، كمـا يستوحي من اشارات ابن ماجد ، ان الجزر الواقعة في منطقة سفالة ، مراكز مهمة للبيع والشراء عامرة بالحركة(١٠٩) .

ترتب على النشاط التجاري الذي شهده شرق افريقيا على يد العرب ان ارتبطت هذه المنطقة عبر طرق التجارة البحرية بالخليج العـربي والشرق الأقصى ( الهند والصين ) ، وهذا ما أشار اليه ابن ماجد حيث وصف هذه الطرق في ( سفـاليته ) ومن المعلومات الحضارية التي يؤكد عليها ابن ماجد انتشار الاسلام الواسع في شرق افريقيا ، ففي جزيرة زنجبار ـ مركز الحكم الاسلامي المبكر ـ يذكر بأن هناك ٤٠ مسجداً جامعاً منتشراً في أنحائها(١١٠) .

ويؤكد ابن ماجد في هذا المجال الحقيقة المعروفة وهي وصول الاسلام والحضارة العربية الاسلامية حيث المناطق التي وصلها العرب المسلمون في شرق افريقيا بينما ظلت المناطق الأخرى مواطن للكفار والهمج ، ومنها البلاد الواقعة جنوب سفالة(١١) . كما نجد أن بعض المناطق ، لاسيما بين كلوة وسفالة ، قد انتشر الاسلام بين سكانها على الرغم من بقاء حكامها على كفرهم(١١٢) .

لا يكاد يوجد لدينا بين معلومات ابن ماجد عن شرق افريقيا شيء عن طبقـات المجتمـع او عن الحيـاة الاجتماعية ، التي لابد أنه عرفها عن كثب ولمسها شخصياً في رحلاته ، ولكن نستطيع أن نستشف من كتاباته أن المدن والامارات العربية في شرق افريقيا قد ضمت العرب والافارقة . وهذه حقيقة واقعة ، حيث ان العرب توافدوا الى هذه المنطقة واختلطوا بسكانها من الافارقة وأصبحت مدنهم واماراتهم التي أنشأوها في شرق افريقيا تحمل في نظمها وتقاليدها أصولاً عربية وافريقية ، خاصة بعد التقارب والتمازج الذي حصل بين العرب وسكان المنطقة(١١٣) .

لم يشر ابن ماجد الى شيء من هذا ، فلا نسمع منه شيئاً عن الشعب السواحيلي الذي هو نتاج التمازج بين العرب والافارقة واللغة السواحيلية التي هي مزيج من العربية واللهجات الافريقية . كما لم يذكر ابن ماجد ، مـع الأسف ، شيئاً عن مظـاهر الحضارة العربية الاسلامية التي نقلها العرب الى شرق افريقيا والتي شهـد بهـا حتى المستعمـريـن الأوروبيين(١١٤) .

ان بيانات ابن ماجد الخاصة بالوضع السياسي والاقتصادي في شرق افريقيا والقائمة على مشاهداته الشخصية من خلال زياراته لموانىء المنطقة وجزرها تجعلنا نعد ما كتبه ابن ماجد مصدراً مهماً في تدوين تاريخ شرق افريقيا . وحق علـى مؤرخينا أن يولوا كتاباته مزيداً من الاهتمام.

د . صباح ابراهيم الشيخلي
جامعة بغداد ـ كلية الآداب

# الهوامش:


١ ـ عبدالرحمن عبدالكريم العاني ، دور العمانيين في الملاحة والتجارة الاسلامية القرن الرابع الهجرى ( سلطنة عمان ، ١٩٨١ ) ص ١٩ . ٣٢ ـ ٣ .

٢ ـ أبو الحسن على بن الحسين المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ( القاهرة ، ط ٣ : ١٩٥٨ ) ج ١ ١٠٧ ـ ٨ .

٣ ـ المصدر نفسه .

٤ ـ شوقي الجمل دور العرب الحضارى في شرق أفريقيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ندوة العلاقات بين الخليج وشرق أفريقيا ، راس الخيمة ، ١٩٨٧ ، ص ١١ انظر ايضاً R.cupland,East Africa and its invaders (London,1934) b.21 .

٥ ـ عبدالرحمن العاني ، عمان في العصور الاسلامية الاولى ( بغداد ١٩٧٧ ) . ص ٨٨ ، عامر محمد المجرى ، تاريخ العلاقات العمانية ـ الافريقية ، بداية التواجد العمانى في شرق افريقيا ، البحوث المقدمة الى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ( الدوحة ، قطر ، ١٩٧٦ ) ج ٢ ص ص ٧٧٦ ـ ٠٧٧ .

٦ ـ أحمد حمود المعمرى ، عمان وشرقي افريقيا ، ترجمة محمد أمين عبدالله ( سلطنة عمان ، ١٩٨٠ ) ص ٠٤٤ .

٧ ـ عبدالرحمن زكي ، الاسلام والمسلمون في أفريقيا ( القاهرة ، ١٩٧٠ ج ١ ص ٧٧ ـ ١١٩ ، المجرى ـ المصدر السابق ص ٠٧٧٧ .

٨ ـ خولة شاكر الدجيلي ، العلاقات العربية الاسلامية مع الساحل الافريقي الشرقي حتى القرن التاسع الهجرى ، اطروحة دكتوراة غير منشوره ( جامعة بغداد ، كلية الاداب ، ١٩٨٠ ) ٧٨ ـ ٠٨١ .

٩ ـ أحمد بن ماجد النجدى ، كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد تحقيق ابراهيم خورى وعزة حسن ( دمشق ، ١٩٧١ ) ص ٠١٠

١٠ ـ اغناطيوس كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ( القاهرة ، ١٩٦٥ ، ج ٢ ص ٥٧٣ .

١١ ـ انـور عبدالعليم ، ابن مـاجد المـلاح ( القـاهـرة ١٩٦٧ ) ص ١٣ ، كراتشوفسكي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٧٣ .
١٢ ـ بن ماجد ، كتاب الفوائد ، ص ٣ .
١٣ ـ أحمد محمد عطية ، المعلم والاستاذ والشاعر والفلكي والملاح ورائد علم المرشدات البحرية ، الوثيقة ، العدد ٢ ، السنة الأولى ( ١٩٨٣ ) ص ١٥٨ .
١٤ ـ أحمد بن ماجد ، ثلاث أزهار في معرفة البحار ، تحقيق ثيودور شومونسكى ، ترجمة محمد منير مرسى ( القاهرة ، ١٩٦٩ ) ، ص ١١ ، ٤٢ ، ١٢٣ .
١٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٤ ، ٢٣٥ .
١٦ ـ اطلع ابن ماجد على كثير من المؤلفات الجغرافية التاريخية للمسعودي وابن حوقل وابي الفدا وغيرهم . المصدر نفسه ص ١٠٠ ، ص ١٧١ .
١٧ ـ ابن ماجد ، كتاب الفوائد ، ص ٣ .
١٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٧ ( المقدمة ) . ثلاث أزهار ، ص ٥١ .
١٩ ـ الفوائد ، ص ١٨ .
٢٠ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨ .
٢١ ـ كراتشوفسكي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٧٧ .
٢٢ ـ ابن ماجد ، الفوائد ص ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .
٢٣ ـ المصدر نفسه ، ص ص ٢٦٩ ـ ٧١ ، ٢٧٢ .
٢٤ ـ المصدر نفسه ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ .
٢٥ ـ المصدر نفسه ، ص ص ٣٢٨ ـ ٣٣٤ .
٢٦ ـ ابن ماجد ، ثلاث أزهار ، ص ٥١ .
٢٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٥١ .
٢٨ ـ المصدر نفسه ، ص ص ٣٢ ـ ٤١ ـ ٤٤ .
٢٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٢ .
٣٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٧ .
٣١ ـ المصدر نفسه ص ٤٩ .
٣٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٨ .
٣٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٢ .
٣٤ ـ المصدر نفسه ، ص ٨٩ ، ٢٠ ، ٢٣ .
٣٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٧ ـ ١٨ . ابن ماجد ، الفوائد ، ص ص ٢٧٢ ـ ٣
٣٦ ـ المسعودى ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦ .
٣٧ ـ ابن ماجد ، ثلاث أزهار ، ص ٤٤ .
٣٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
٣٩ ـ ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٧٢ .
٤٠ ـ المسعودى المصدر السابق ج ١ ص ١٠٧ ياقوت الحموى معجم البلدان ( القاهرة ١٩٠٦ ) ج ٢ ص ١٠٦ ابن سعيد المغربى كتاب الجغرافية تحقيق

اسماعيل العربي ( بيروت ١٩٧٠ ) ص ٨٢ .

٤١ - ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٧٢ .

٤٢ - المسعودى ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦ ، الحموى ، ج ٥ ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ ، زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، أثار البلاد وأخبار العباد ( دار صادر بيروت ١٩٦٠ ) ص ٦٢ .

٤٣ - مروج الذهب ، ج ٢ ص ٦ .

٤٤ - انظر الصفحات التالية :

٤٥ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٤١ .

٤٦ - المصدر نفسه ، ص ١٧ ، ٢٧ ، ٤١ الفوائد ٢٧٢ .

٤٧ - ثلاث أزهار ، ص ٤٤ ، المسعودى ، ج ١ ص ١٠٧ ، ابو عبدالله بن محمد الادريسي نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نسخة مصورة بالفوتستات عن نسخة البودلاين اكسفورد ، مخطوطة محفوظة في مكتبة المجمع العلمي العراقي ( رقم ١٥ - جغرافية) ورقة ٧٠ .

٤٨ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٧ .

٤٩ - المصدر نفسه ، ص ٢٩ .

٥٠ - الدجيلي ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .

٥١ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٩ .

٥٢ - المصدر نفسه .

٥٣ - الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٣٣ .

٥٤ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٣٠ .

٥٥ - المسيوجان ، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقيا الشرقية ، ترجمة يوسف كمال ( القاهرة ، ١٩٢٧ ، ص ٢٢٤ .

٥٦ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٣٦ .

٥٧ - المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

٥٨ - المصدر نفسه ، ص ٢٩ .

٥٩ - المصدر نفسه ، ٤٤ .

٦٠ - المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

٦١ - المصدر نفسه ، ص ص ٤٤ - ٥ .

٦٢ - ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٧٢ .

٦٣ - المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .

٦٤ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٣٥ .

٦٥ - المصدر نفسه ، ص ٣١ .

٦٦ - المصدر نفسه ، ص ٣١ - ١٢٧ .

٦٧ - المصدر نفسه ، ص ٣١ - ٣٢ .

٦٨ - المصدر نفسه ، ص ٣١ .

٦٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٢ .
٧٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٢ .
٧١ ـ المصدر نفسه ص ص ٣٣ ـ ٤ .
٧٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٢ .
٧٣ ـ ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٢٩ .
٧٤ ـ المصدر نفسه .
٧٥ ـ ابن ماجد ،ثلاث ازهار ، ص ١٧ .
٧٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٥١ .
٧٧ ـ المصدر نفسه ص ٤٠ ، ٥٠ ، ٥١ .
٧٨ ـ ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٣٢٨ .
٧٩ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازدهار ص ص ١٨ ـ ١٩ وما بعدها . كما ذكر ابن ماجد معلومات مفصلة عن المنازل الفلكية والنجوم الملاحية التي يهتدى بها الربان في كتابة الفوائد في الفائدة الثالثة والفائدة الرابعة ، ص ص ٣١ ـ ١٧٨ .
٨٠ ـ الفوائد ، ص ٢٥٠ .
٨١ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .
٨٢ ـ ابن سعيد ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .
٨٣ ـ محمد بن عبدالله اللواتي المشهور بابن بطوطه ، رحلة ابن بطوطه (بيروت١٩٧٩) ، ج ١ ص ٢٨٢ .
٨٤ ـ Durate Barbosa, The book of Durate Barbosa: an account of the countries bordering on the Indian Ocean and their inhabitants completed about the year 1518 A.D, translated from the Portuguese text by M.L. Dames Vol-1 (LONDON, HAK. Soc. 1918) No. 1.P.31.
٨٥ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٧ .
٨٦ ـ الادريسى ، المصدر السابق ، ص ٣١ .
٨٧ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٩ .
٨٨ ـ الجمل ، المصدر السابق ، ص ١٨ .
٨٩ ـ جيان ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .
٩٠ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٤٢ .
٩١ ـ الجمل المصدر السابق ، ص ١٨ .
٩٢ ـ جيان المصدر السابق ، ٢٤٦ .
٩٣ ـ الجمل . المصدر السابق ، ص ١٨ .
٩٤ ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ص ٤١ ـ ٢٠٠ .
٩٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٠ .
٩٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

٩٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٥ .
٩٨ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٨ .
٩٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
١٠٠ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .
١٠١ـ المصدر نفسه ، ص ٤٨ .
١٠٢ـ الجمل ، المصدر السابق ، ص ٢٠ .
١٠٣ـ انظر ما ذكرناه سابقا .
١٠٤ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٤٢ .
١٠٥ـ المصدر نفسه ، ص ٣٨ .
١٠٦ـ المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
١٠٧ـ المصدر نفسه ، ص ٤٥ .
١٠٨ـ المصدر نفسه ، ص ٣٠ .
١٠٩ـ المصدر نفسه ، ص ٤٩ .
١١٠ـ ابن ماجد ، الفوائد ،ص ٢٢٩ .
١١١ـ ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ص ٤١ ـ ٢ .
١١٢ـ المصدر نفسه ، ص ٣٨ .
١١٣ـ هذا ما اشار اليه الكتاب العرب قبل ابن ماجد . انظر ابن بطوطة ، رحلة ج ١ ص ٢٨١ ، ٢٨٣ . واشار الكتاب البرتغاليون الى ذلك أيضا انظر ، الجمل المصدر السابق ، ص ٤٢ .
١١٤ـ الجمل ، المصدر السابق ، ص ١٧ .